

جدلية الواقعي والجمالي في الرواية الجزائرية رواية "الطوفان" لمرتاض أنموذجا
The realistic (actual) and esthetic dialectic in the Algerian
roman-" Deluge" or "attofan" roman to Abd el-Malek Mortade
as a sample



مجلة البحوث والدراسات الإنسانية العدد 13-2016 ص 31-46

أ. يحيى سامية

(جامعة 20 أوت 1955 - سكيكدة)

Email : samiayahiaoui1@hotmail.fr

المخلص

يعتبر توظيف التاريخ في الرواية الجزائرية من الظواهر الفنية الملفتة، حيث نلمس توظيفا مباشرا اعتمد على الذاكرة والمحايلة في نقل الوقائع التاريخية. وتوظيفا رمزيا استلهم فيه المبدع التاريخ للمء وترميم وتفسير فراغات سكت التاريخ عن ذكرها. وذلك بالمزج بين الواقع-التاريخ والتمثيل-الجمالي. وسأحاول من خلال هذه الدراسة أن أتتبع حضور التاريخ في رواية "عبد المالك مرتاض" التاريخية الطوفان" التي مزجت بين التاريخي والروائي.

الكلمات المفتاحية: الرواية الجزائرية - التاريخ - التمثيل - الجمالي -

الموضوعاتية

Abstract

The use of history in the Algerian novel is considered as remarkable artistic phenomena where there is a direct use of history relied on memory and different generations to transmit historical facts. Also, there is a symbolic use of history in which the creator inspired from it to fill, repair and explain the missing information that weren't mentioned ever before. This is through blending between history-fact and aesthetic imagination I will try through this study to show the evident use of history in the historic novel of "Abd El Malek Mortadh" "The Deluge" which mixed between what is historical and narrative according to a thematic analytical approach

Keywords : The Algerian Novel- history- aesthetic imagination – thematic

مقدمة:

شغل توظيف التاريخ مساحة ثرية من جغرافيا الأدب العربي، وترك بصمته واضحة في المخيال الروائي الجزائري، إذ انطلق المبدع من صميم مجتمعه ليكتب قصاصات جريئة عن جزائره الحبلى بذكريات أمس - شاعدا أو راويا أو متخيلا - من أجل توصيل فكرة الثورة وبعث ثقافة المقاومة في الأجيال القادمة بما يوائم فلسفة تفكيره وأيديولوجيته.

وتعتبر الرواية التاريخية كلّ رواية اعتمدت على الحدث التاريخي كمرجعية للحدث الروائي، ليكون موضوع السرد. فيمارس المبدع فيها وظيفتين؛ وظيفة المؤرخ برجوعه إلى المادة التاريخية الصحيحة من مصادرها فيتقمص مهمة عالم الآثار برجوعه للقديم ومعانيته بالملاحظة والتدقيق والتمحيص لتمييز الصحيح من المزيف. ثم وظيفة المبدع "الملهم" عندما يعيد قراءة الوقائع التاريخية بالتصديق والتشكيك وطرح تساؤلاتٍ يعتمدها في بناء حركته الفنية، ليقدمها للقارئ بطريقة جديدة يمتزج التخيل فيها بالواقع، ويتماهى فيها السرد بالتاريخ حتى لا يكاد القارئ العادي والسطحي أن يتبين الشعرة الفاصلة بينهما. فلقد غدّى المتن التاريخي العملية الإبداعية التخيلية مما بثّ الشكّ في نفس القارئ البسيط وخلخل ثوابته ومعلوماته التاريخية المسبقة. لذا وجب أن يكون الناقد متمرسا وملماً بتاريخ الحقبة موضوع الرواية حتى يستطيع مسك شعرة الفصل بين التاريخ الفعلي والتاريخ المروي ولا يحيد عنها.

يعتبر توظيف التاريخ في الرواية الجزائرية من الظواهر الفنية الملفتة للانتباه وقد تباين توظيفه بين التأريخ لوقائع دينية أو اجتماعية أو سياسية، ولعل الموضوع التاريخي المهيمن هو موضوع الثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي. إذ بدا التوظيف في

البداية باهتا مباشرا، نقل الواقع كما هو معتمدا على بوح الذاكرة، ومن ذلك نذكر ثلاثية الجزائر لمحمد ديب التي عايشت الثورة ونقلت أدنى تفاصيلها ونجمة لكاتب ياسين التي زاوجت بين الرمز والتاريخ فقدمت حبكة فنية مادتها التاريخ فتاة سوداء تنافس الكثيرون على حبها وأبوها لتكون رمزا لجزائر تلك الفترة. وثلاثية مولود فرعون "الأرض والدم و ابن الفقير والدروب الوعة التي أرّخت لفترة ما قبل الثورة حيث أبدع فرعون في نقل صورة شفافة عن طبيعة المجتمع القبائلي ووصف عاداتهم وتقاليدهم وكذا التعايش السلمي بين الجزائريين والفرنسيين آنذاك. وكذا روائع آسيا جبار ومالك حداد التي تنطلق من فكرة التشكيك في الهوية ثم بنائها وتشبيدها. وبعض أعمال الطاهر وطار مثل اللاز وتجربة في العشق والموت، والشمعة والدهاليز والولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي. وبن هدوقة ومرزاق بقطاش، وجيلالي خلاص وزهور ونيسي المجاهدة التي عشت الثورة فكانت شاهدة عيان نقلت سيرتها الذاتية في أعمالها الإبداعية وآخرون. ثم بدأت لمسة التجديد تلامس النصوص الروائية، فاستلهم التاريخ كمتخيل أراد من خلاله الروائي أن يعالج قضايا الواقع ومشكلات الإنسان بالمزج بين التاريخي والجمالي -بطريقة مباشرة أو غير مباشرة- وتجلى ذلك في روايات الأزمة أو ما يسمى بالأدب الاستعجالي ومن ذلك روايات واسيني الأعرج كذاكرة الماء، وشرفات بحر الشمال والأمير. وعز الدين جلاوجي وأحلام مستغانمي وعبد المالك مرتاض موضوع دراستنا. إضافة إلى كتاب جزائريين كرّسوا أقلامهم للدفاع عن قضايا تاريخية عربية وإنسانية ككتابات يasmine خضرا، حيث عاجلت سننونات كابول القضية الأفغانية وتناولت أشباح الجحيم القضية العراقية أما رواية الصدمة فشُرّحت العلاقة بين المجتمع الإسرائيلي والفلسطيني بأسلوب أثار جدلا كبيرا.

يعدّ عبد المالك مرتاض من الروائيين الذين أجادوا توظيف التاريخ في رواياتهم، حيث تشكّلت إبداعاته من المزج بين التاريخ والواقع فهو يكاد يستمد مادته من التاريخ القديم وقد تميزت ثلاثية الجزائر - الطوفان - عن باقي رواياته بتوظيف التاريخ واستحضاره بأسلوب خبري وصفي مرّ وقاع عن الثورة التحريرية الكبرى وفق سرد تاريخي تخيلي صاغه في محكيّات ذلك لأنه قبل أن يكون روائيا كان قارئاً جيّداً للتاريخ، وبما أنّ الرواية هي تاريخ متخيّل داخل الواقع الموضوعي فقد أعاد مرتاض استثمار التاريخ لينتج نصوصاً تاريخية ضمن حركة تزاوج بين الواقع والمتخيّل. وقد اعتمد في ثلاثية الجزائر على تصوير الحدث كما هو ثم تأثيث فراغات لم تضاءلها كتب التاريخ، فبقيت مبهمّة تحتاج إلى توضيح يقول: "إنّ التخييل يملأ الفراغ الذي سكّت التاريخ عنه" (1) (عبد المالك مرتاض: 2010) لجأ مرتاض إلى التاريخ من باب استعراض مواقف حاسمة من التاريخ، أراد من خلالها تعرية الواقع الاستعماري للجزائر فترة الاستعمار، وبعث هذه الحقائق الملفوفة بالبطولات إلى الجيل الجديد (الأبناء). وقد حدّد الزمن الداخلي للنص في فترة امتدت من 1830 - 1945 وزمن خارجي تخيلي امتد على طول خمس ليال - زمن الحكّي - وتعدّ الرواية مفعمة بتقنيات سردية تراوحت بين سرد واقعي تاريخي من جهة، واحتوت على سرد خيالي روائي من جهة أخرى. وعليه كيف استثمار عبد المالك مرتاض التاريخ؟ ولماذا استلهمه بهذه الطريقة؟

ملخص رواية الطوفان لعبد المالك مرتاض:

صدرت رواية الطوفان، رواية عشق الوطن واللغة لعبد المالك مرتاض عن دار هومة عام 2010، وتضم 367 صفحة توزعت على خمسة فصول، مثل لكل فصل بليّة من الحكّي، وتعدّ رواية الطوفان الجزء الثاني من ثلاثية الجزائر التي تكوّنت من

الملحمة - الطوفان - والخلاص- " تدور أحداث رواية الطوفان حول حلقات شبابية كانت تعقد تحت شجرة الدردارة، هذه الشجرة المباركة التي تؤرّخ لمبايعة الأمير عبد القادر. ويحدث في إحدى الليالي الصيفية القائظة أن تنضم إلى الحلقة امرأة عجائبية من نور تدعى أم زينب، لتنبؤا مركزا مشرقا ومهما في الحلقة بعد جدل دار بين أفرادها. تشرع الحاكية أم زينب في سرد وقائع من تاريخ الجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830 حتى مجازر 08 ماي 1945 مركزة على الثورات الشعبية ومقاومة الأمير عبد القادر و لالا فاطمة نسومر وذلك على طول خمس ليال تخللتها وقفات وحوارات جادة تنم عن وعي من الشباب بتاريخ بلادهم وحيروهم وتفاجئهم بأخبار أخرى لم تضحها كتب التاريخ .

1- رمزية العنوان "الطوفان":

يعد الطوفان ظاهرة طبيعية عنيفة ارتبطت في جلّ الديانات بالعقاب والتطهير. وتتميز طوفان مرتاض عن هذا المعنى "حكاية طوفان الدماء، وهي التي كان أبطالها أساسا المقاومون من أبائكم الأكرمين، أما شخصياتها فكانت من مرتزقة الكائن الغريب العنيد" (2) (عبد المالك مرتاض: الطوفان، 2010 ص219) يحمل العنوان دلالة عميقة تحيل إلى طوفان الاستعمار الفرنسي الغاشم الذي أغرق الجزائر في الدماء وفي ويلات الظلم والاستعباد هذا من جهة كما حمل العنوان رمزية إيجابية على لسان الحاكية أم زينب فكانت قصة طوفانٍ ولّد الوعي والشعور بالمأساة والظلم هذا الوعي الذي جلب الطوفان الذي تمحضت عنه الثورة التي أنجبت الاستقلال فيما بعد.

2-الحاكية أم زينب/استرجاع وتداعي:

لم يتكلم الكاتب بصوته وإنما فوّض راويا تخيّليا أخذ على عاتقه عملية القص متوجّها إلى مستمع تخيّلّي يقابله. وتوحي الأم زينب بالكثير من الدلالات فهي قناع تخفّي من ورائه السارد لي طرح أفكاره بحرية. فينطقها بما يريد قصد تمرير خطاب رامز. فأم زينب ليست في الحقيقة سوى أنا الكاتب الثانية أو الكاتب الضمني الذي استعان به في توصيل صوته "حيث كان يروي بلهجة المتكلم متخذا لسان أحد الرواة الأساسيين في روايته الذي يتحمل مسؤولية نقل الحدث الروائي التاريخي في سلم أحداث تصاعدية" (3) (نواف أبو ساري: 2004، ص168). تظهر الحاكية أم زينب على أنّها مخلوق عجائبي من نور إذ تؤكد كلّ القرائن الوصفية أنّها ليست إلّا انعكاسا للجزائر في أسمى تجلياتها، إنّها الوطن الشاهد الوحيد القادر على سرد وقائع حقيقية بكلّ هذه الدقة والصدق والوضوح والأمانة. كأنّ أم زينب هنا هي امتداد لزينب بطلة رواية عبد المالك مرتاض صوت الكهف "حيث تصوير زينب وطنا (الجزائر) وعقدها الماضي هويتها عبر التاريخ المليء بالمقاومات وصوت نداء الوطن" (4). بليحيا الطاهر، 2000، ص52). قامت الحاكية برحلة في الذاكرة وهي رحلة تقوم على التداعي وعلى تقنية الاسترجاع. حيث نقلت أحداثا تاريخية مرتبة ترتيبا زمنيا وفق نسق خطّي متواصل وتوالد استرسالي تخللته أحيانا بعض الوقفات الفجائية نتيجة تفاعل مع الحدث بالبكاء أو التعب لكثرة المسرود وتفرع أحداثه وتفصيله وأسئلة الفتیان الملحة والمستفزة لذاكرة المرأة.

3- المحكي التاريخي في رواية الطوفان:

رصد الكاتب في روايته مراحل احتلال فرنسا للجزائر قبل اندلاع الثورة مركزا على حوادث الثامن ماي 1945 وذلك وفق محاور كبرى. وطرح إحداثياتها المختلفة على طول النسيج السردي، بلغة كلاسيكية راقية أصيلة وأسلوب خبري جذاب صاحبه توالدا سرديا للقصص داخل المتن الحكائي وفق تقنية المحكي والاستدكار.

أ- الليلة الأولى: استدكار وبكاء

"الأدب في حقيقته ليس انعكاسا للعملية الاجتماعية لكنّه جوهر التاريخ بأكمله وخلاصته وموجزه" (5) (رونيه ويليك وأستن دارين، 1981، ص 98). أراد مرتاض في الاستهلال الروائي أن يحرك ضمائرنا وأن يحرك مشاعر الوطنية لذا الشباب وأن يوقظ حبهم لوطنهم ويجدد إيمانهم الكبير به من خلال استذكارات لماض مظلم قاتم مرّت به الجزائر تحت نير اغتصاب الحرية من جهة وأشاد بماض تليد لأجدادنا الذين دافعوا عن قضيتهم واحتضنوها ليستعيدوا باستقلالهم وطنهم وجنتهم وهويتهم.

1- أسطورة المكان والتاريخ:

افتتح مرتاض الفصل الأول من روايته بمشهد ينم عن التآلف والاجتماع والثقافة والوفاء بين أحفاد الأمير عبد القادر يقول "اعتاد فتيان مدينة أم العساكر الخضراء، على عقد جلسات للسمر تحت شجرة الدردارة، طوال الليالي الرطبية أثناء كل صيف، فكانوا يتناشدون الأشعار الشعبية تحاكون الحكايات الخرافية كما كانوا في بعض الأطوار يتحاورون في مسائل العلم، وفي شؤون من التاريخ وفي أطراف من السير والأيام والأمثال - والسياسة والقرآن -، إن هذه العادة الثقافية نشأت منذ بيعة الأمير عبد القادر تحت شجرة الدردارة في التاريخ المشهود. وقيل إنّ الأمير

نفسه هو الذي اتخذ ذلك المجلس... قبيل البيعة المباركة... ولم يقع الإقلاع عن ذلك الدأب الثقافي إلا حين غزا الكائن الغريب العنيد أرض المحروسة المحمية البيضاء" (6) (عبد المالك مرتاض: الطوفان، 2010 ص 65). ورث الشباب هذه العادة الثقافية عن الأمير مؤسس الدولة الجزائرية العصرية، فكان الاجتماع بين مختلف الفئات لمناقشة قضايا فكرية وثقافية وعلمية وتاريخية وشعبية ودينية" وكان الاختلاف بينهم معين الخصب والثراء الفكري والحوار البناء" (7) (عبد المالك مرتاض: الطوفان، 2010 ص 09). وتحيل شجرة الدردارة على دلالات دينية وأسطورية، أما الدينية فهي مبايعة الرسول صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة، " ومنه فأصول هذا الاجتماع إسلامي. أما الجانب الأسطوري فيتجلى في أسطورة الشجرة وجعلها مكانا مقدسا للتلاقي، بل ولاستحضار الأرواح العجائية. وترتبط الشجرة في الأساطير بالخصب والنماء والتواصل والعراقة والأصالة.

2-الحكاية أم زينب والتجلي العجائي:

صاحب ظهور الحكاية أم زينب طقوس عجائية، بدأت بانطفاء شعلة القنديل وحدوث عاصفة، فظهور المرأة واشتعال قنديلها مما بث رعبا وخوفا في أحفاد الأمير؟ عكست الصورة الأولى لتجلي المرأة خوفا وتوحي هذه العلامات بالطقوس المصاحبة لتزول الوحي، فجبريل كان ملاكا يرتدي البياض وبث نزوله رعبا وهلعا في نفس الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. فكأن الحكيم الذي سترويه أم زينب هو نقل للحقيقة التي تتجلى في شكل وحي متزل على أحفاد الأمير. لم يطمئن الشباب لهذه المرأة النورانية نظرا لثراء المخيلة الشعبية الجزائرية بقصص الأغوال والجن، ولكن سرعان ما أقنعتهم الأم زينب أنها شاهد عيان على جرائم

كان المستعمر بطلها مؤكدة للأحفاد أن سبب زيارتها لهم هو إفادتهم من تاريخ جزائريهم . استأنس الأحفاد بعد شك وريب كبيرين بالأم زينب، وأسرّوا لها بوجود ثغرات واضحة في التاريخ عجزوا عن ملئها وتأنيثها وتأويلها "قرأنا التاريخ فلم يشف لنا غليلا، ولا كفانا سؤلا، فرمّا كان الاستماع إلى الحكّي أحبّ إلينا من قراءة التاريخ" (8) (عبد المالك مرتاض: الطوفان، 2010 ص22). فكان الوفاق بين الطرفين حول وجود بتر في التاريخ يحتاج إلى ملء وترميم.

3- جمالية الحكّي/وترميم فراغات من ذاكرة التاريخ:

لأنّ " ذاكرة التاريخ كثيرا ما تنسى" (9) (عبد المالك مرتاض: الطوفان، 2010 ص 39). قرّر مرتاض بلسان الحاكية أم زينب أن يرمم بياضات سكت التاريخ عنها. فانطلق نسيج الحكّي بلغة إخبارية حجاجية إقناعية وتقديرية بما يتوافق مع المرجعية التاريخية والواقعية للحدث. والمزج بين خطابين أحدهما يتحرك في دائرة التعبير المنطقي الواقعي والآخر يدور في دائرة التخيل الذي يجعل من السرد التاريخي للأحداث سردا أدبيا ليعري واقع تسليم الجزائر من طرف أبنائها إلى سبعة وثلاثين ألف مرتزق حربوا الجزائر بعد ثلاثة أيام من احتلالها فكانت مجازر الحمامات وأشهرها مجزرة حمام القصبة الذي انتهكت فيه حرّات النساء وسلب حليهن وجواهرهن عنوة بالقطع ثم عرضها للبيع في الأسواق وهي تقطر دما وكلّها تفاصيل " تغافل التاريخ عنها إلى حد التآمر بالسكوت في بعض أطواره" (10) (عبد المالك مرتاض: الطوفان، 2010 ص37). وانتهى المشهد ببكاء وعويل نساء أم العساكر الخضراء الذي سمع على بعد مسافات. ودعت الحاكية إلى إقامة مأتم بكائي كلّ يوم من العام ذكرى لبشاعة الاحتلال وترسيخ للوطنية. ثم اختفت الأم زينب مع صياح الديكة. وهنا نلاحظ توظيف مرتاض لتقنيات السرد العربي في

كتاب ألف ليلة وليلة، فأَمَ زينب هنا هي شهرزاد عروس الليالي وزينتها. كما كان الحكيم على امتداد الليالي مصحوبا بفقرات تدعيمية من كتب التاريخ تؤكد واقعية الحوادث ومن ذلك كتاب المرأة "مذكرات حمدان خوجة الذي يمثل شاهد عيان عن فظاعة الاستعمار، وكتب أبو القاسم سعد الله ومبارك الميلي ومحمد بن عبد الله الجزائري، ومحمد كرد علي وعبد المالك مرتاض "المؤلف" ومؤرخين فرنسيين مثل المؤرخ Bichon ونابليون بونابارت وهذا يؤكد أن الرواية التاريخية تبدأ من حيث ينتهي التاريخ وأن التاريخ هو العمود الفقري لهذه الرواية.

ب- الليلة الثانية: تدقق الطوفان وارتجالية المقاومة:

أثارت أم زينب أسباب احتلال فرنسا للجزائر مع الشباب فتقاطعت مع كتب التاريخ في أسباب وانفردت بنقل أسباب جهلها التاريخ أم تناساها. كما أشارت الحاكية إلى البدايات الأولى للمقاومات الشعبية.

1- لالا فاطمة نسومر المرأة الأسطورة:

استحضرت الرواية العديد من الشخصيات المعروفة تاريخيا ومن ذلك شخصية فاطمة نسومر " المرأة التي كتبت التاريخ بدمها... لكن التاريخ قد أصيب بخرس عن موقف لالا فاطمة نسومر ورجالها" (11) (عبد المالك مرتاض: الطوفان، 2010 ص 61-62). قاومت عذراء الجبل المستعمر مدة سبع سنوات في منطقة القبائل حتى شبهها نوفيل باربون N- Barbon بالمرأة الأسطورة جان دارك. وتروي كتب التاريخ استسلامها للمحتل إلا أن الرواية صحّحت بالتأكيد على أصابتها بشلل مفاجئ سهّل عملية القبض عليها وسجنها.

ج- الليلة الثالثة: المؤامرة والنيّات الحسنة:

أرجعت الحاكية أسباب الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830 إلى تسرب جواسيس في عضد الدولة الجزائرية، جاؤوا في شكل بعثات طلابية بغرض الدراسة في المدرسة الثعلبية ، إضافة إلى دور اليهود حساس والخطير في احتكار التجارة الخارجية ومن هؤلاء نذكر يعقوب كوهين وميخائيل أبو زنار. إضافة إلى مشكلة الديون وضعف شخصية والداي حسين، وانطلاق مؤامرة الخزناسي وابنته عليه(راجع التفاصيل في الرواية)وجريه وراء المال وتعيينه لليهودي بكري على رأس الخزنينة" لقد كان المجتمع الجزائري مجتمعا متعدد الاثنيات يعيشون دون تعصب أو عنصرية بل بتحاب وتأخ فقد كان الأمازيغ والبربر وزنوج إفريقيا واليهود يعيشون في مجتمع واحد. غير أن اليهود لم ينهضوا بكل واجباتهم إزاء الوطن الذي آواهم (12). (عبد المالك مرتاض: الطوفان، 2010 ص95) إضافة إلى تستر فرنسا وراء شعار حماية الجزائر وتخليص شعبها من ديكتاتورية الأتراك وحكمهم الجائر.تضافرت كلّ هذه الأسباب لتكون فسحة لدخول أسطول الاحتلال إلى الجزائر عبر شاطئ سيدي فرج الذي شهد ثلاث ليال عاصفة كانت لولا الدسياسة والبلادة من طرف حسين باشا وصهره قوى طبيعية مسخرة من الله تعالى لنصرة الوطن الجزائر" فقد يكون التاريخ ملوما وهو ليس مليما، إذ لا ذنب له فيما روى، فهو لا يعدو أن يحاول تسجيل الوقائع وسردها كما وقعت، أو كما يروى له، بحق أو بباطل، وإثما وقعت فعلا.سرعان ما بدأت ثورات شعبية ارتجالية متلاحقة أولها ثورة الحاج بن علي السعدي في منطقة القبائل وهو "أحد الرجال الذين أهمل التاريخ ذكرهم فأهملهم إهمالا"(13) (عبد المالك مرتاض: الطوفان، 2010

ص177). وأتى بعده محي الدين الحسني ثم ابنه الأمير عبد القادر أما في الشرق فأحمد باي في حين استسلمت عنابة. حقق الأمير عبد القادر انتصارات كبرى متكررة على طول سبعة عشرة عاما، فصلّها مرتاض في روايته وذكر أهم خصاله كقائد وكزوج وخلّد أهم انجازاته إلّا أنّ الراوية تقر بوجود "الكثير من الفراغ في تاريخ المقاومة العظيمة لم نستطع ملأه، لأنّ التاريخ لم يفصل القول فيها، فكان علينا شحيحا، فظلّت بعض الأمور لغزا محيّرا لاريب أنّ هناك أعذارا موضوعية" (14) (عبد المالك مرتاض: الطوفان، 2010 ص200). نستنتج أنّ الرواية التاريخية تحاول ملء الفراغ الباني من خلال سلطة الحكيم (الاسترجاع) وجمالية التخيّل.

د- الليلة الرابعة: مناجاة الماء/ خصب وتحرر وولادة:

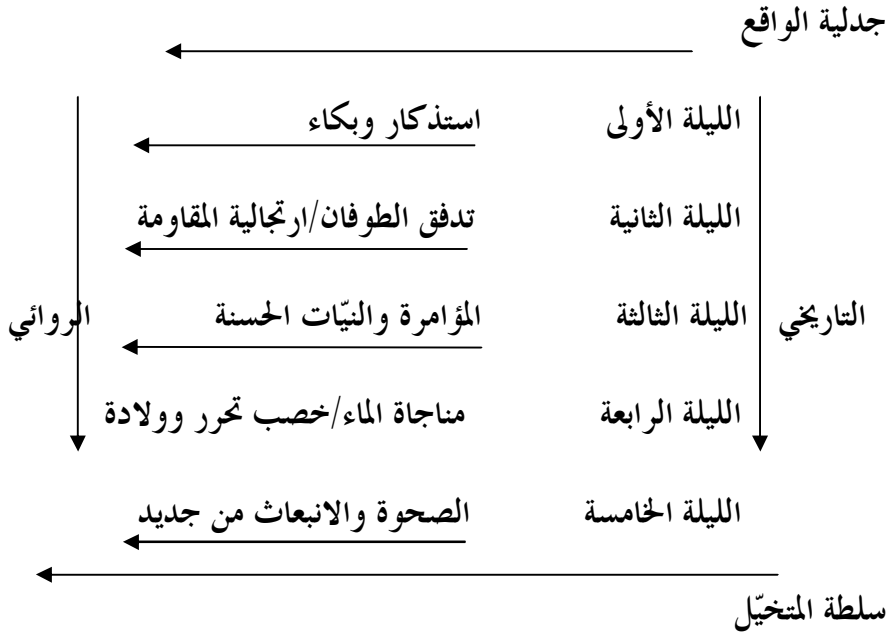
وظّف عبد المالك مرتاض في روايته التاريخية الطوفان الماء برمزية. حيث حضر في الليلة الرابعة من حكي أم زينب. حيث افتتحت شهرزاد ليلتها بمناجاة دارت بين الأمير عبد القادر والماء، "بدأ الأمير يتأمل البحر وأمواجه وهي تتلاطم، فتتكسر على قدميه تكسّرا صاخبا، كأن ماء البحر يريد أن يجيّي، بلغته الخاصة، هذا البطل العظيم الذي انتهى إليه هنا... بدأ الأمير الحزين القلب يتأمل حركة الأمواج وهي تتلاطم متكسرة على بعضها بعض وكأنها تتصارع مع نفسها من أجل استعجال الفناء، فكلما تكسرت موجة على أخرى، كسّرت أمواجه فتحولت إلى مجرد لجة ماء، لكن هذه اللجة كانت تفرز من الماء نفسه أمواجه أخرى..." توحد الأمير بالموجود (الماء) بعد أن حوَصر من طرف العدو، فلم يجد إلّا الماء فضاء خصبا لبث مناجاته فهو الكائن الوحيد الحاضر والقادر على التخفيف من ألمه، سمحت خصائص الماء الرمزية بتمرير خطاب مواس للرجل فهو يحمل دلالة الصمت

الاجبائي وسمة الإصغاء الحكيم إضافة إلى دلالات الخصب والتجدد والولادة والبعث من جديد بل والتفاؤل بغد جديد. تشخص الماء إنسانا ودخل في حوار طويل مع الأمير يواسيه ويخفف من وحدته وألمه.

هـ - الليلة الخامسة: الصحوة والانبعاث من جديد:

عانى الشعب الجزائري من الفقر والظلم والتهميش، والعمل في حقول الاستعمار الغاشم دون مقابل وتروي الحاكبة قصة حليلة المسكينة وأطفالها وهي واحدة يستطيع تخيال كل واحد منا استحضار العديد من الوقائع المشابهة. تواصلت المقاومات الشعبية فكانت ثورة المقراني والشيخ الحداد وكلها لم تنجح لسوء التنظيم ونقص الخبرة وضعف التجهيزات والأسلحة وكل هذه الثورات كانت الفتل الذي ولد الوعي بضرورة الصمود والثورة فكانت مجازر الثامن ماي 1945 أعظم مذبحة كوّنت فيها دماء ثمانين ألفا من الجزائريين طوفانا أغرق المغتصب فكان الخلاص. ودّعت الأم زينب فتياها على أمل اللقاء بهم في زمن آخر ومكان آخر لتحكي لهم حكاية الخلاص تاركة وراءها حيرة وأسئلة كثيرة.

ويمكن تلخيص التظاهرات الموضوعاتية لرواية الطوفان في الترسمة الموضوعاتية التالية:



بين سلطة الواقع وجمالية المتخيل جدلية التاريخي والروائي

خاتمة:

نخلص في الأخير أنّ الرواية التاريخية "رواية التاريخ أداها وغطاؤها ولكن أهدافا بعيدة هي مبتغاها، إنها إتمام لما لم يكمله التاريخ" ¹⁵ (نضال الشمالي: الرواية والتاريخ، 2006، ص115). ويعرفها جورج لوكاتش بأنها "رواية تاريخية حقيقية، أي رواية تثير الحاضر، ويعيشها المعاصرون بوصفها تاريخهم السابق للذات". حيث تختلف رؤية وهدف كل كاتب من توظيفه التاريخ، داعما أو مشككا أو ضاربا لثوابت راسخة كخرجات ياسمينه خضرا وكمال داود لتكون الرواية التاريخية من هذا المنظور تميرا للسم في العسل من أجل زرع الفتنة. وقد استطاع عبد المالك مرتاض في رواية الطوفان أن يكتب رواية تاريخية آمنة للتاريخ بالرغم من بطلها المبتدع وحبكتها المتخيلة إذ حاول أن ينقل تاريخ الجزائر كما هو مع حذف وزيادات مركزا على أحداث ومحتزلا لحظات أخرى، بغرض إحياء تاريخ الجزائر وتدوينه في قالب روائي، كون الجنس الروائي أكثر مقروئية وكذلك قصد توثيق الخيط المنطقي بين الماضي والحاضر والمستقبل بغرض توصيل فكرة الثورة إلى الأجيال وترسيخ التحدي وتأسيس الهوية والتواصل مع الذاكرة الجماعية.

جدلية الواقعي والجمالي في الرواية الجزائرية رواية "الطوفان" لمرتاض أنموذجا

الهوامش:

*عبد المالك مرتاض من مواليد 10 جانفي 1935 بتلمسان، حفظ القرآن وتعلم مبادئ الفقه والنحو في كتب والده، نال عدة شهادات وعيّن في 1919 في الجمع الثقافي العربي ببيروت، سجّل اسمه في موسوعات عربية وأجنبية، تجاوزت كتبه المطبوعة الأربعين ومن أبرزها معجم موسوعي لمصطلحات الثورة الجزائرية، وكتاب فنون النشر الأدبي في الجزائر وكتاب أدب المقاومة ومعجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين، إلى جانب إبداعاته القصصية والروائية: نار ونور، صوت الكهف والحفر في تجمّعات الذاكرة وثلاثية الجزائر آخر إصدار له (موضوع الدراسة). ارجع: شريط أحمد شريط وصالح ولعة وآخرون: معجم أعلام النقد العربي في القرن العشرين، مخبر الأدب العام والمقارن، عناية، دت، دط، ص 238-253.

- 1- عبد المالك مرتاض: الطوفان رواية في عشق الوطن واللغة، دار هومة، الجزائر، 2010، دط، .
- 2- المصدر نفسه: ص 219.
- 3- نواف أبو ساري: الرواية التاريخية، دار بهاء الدين، 2004، قسنطينة، ص 168.
- 4- بليحيا الطاهر: التراث الشعبي في الرواية الجزائرية، منشورات الجاحظية، الجزائر، 2000، دط، دت، ص 52.
- 5- رونييه ويليك وأستين دارين، نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات، ط2، بيروت، 1981، ص 98.
- 6- عبد المالك مرتاض: الطوفان، ص 65.
- 7- المصدر نفسه: ص 09
- 8- المصدر نفسه: ص 22
- 9- المصدر نفسه: ص 39.
- 10- المصدر نفسه: ص 37
- 11- المصدر نفسه: ص 61-62
- 12- المصدر نفسه: ص 95
- 13- المصدر نفسه: ص 177
- 14- المصدر نفسه: ص 200
- 15- نضال الشمالي: الرواية والتاريخ، بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2006، ص 115.